

الفصل السادس

التربية والتغير

obeikandi.com

التربية والتغير*

إذا كانت هذه هي حقيقة التغير ، وهذه هي أبعاده ، وإذا سلمنا بأنه أمر حتمي ، تمر به جميع المجتمعات ، أو يمر هو بها ، بغض النظر عن سرعته في بعضها واعتداله أو بطئه في بعضها الآخر . وإذا كانت التربية هي الإعداد للحياة ، أو هي الحياة ذاتها - كما سبق وبيننا من قبل - فما هي يا ترى العلاقة بين ذلك التغير . . . وهذه التربية . . ؟

بمعنى هل هناك دور للتربية - داخل المجتمع - لمواجهة التغير وللتعامل مع عوامله ومسبباته وأثاره ونتائجه . . ؟ . . وإذا كانت الإجابة بنعم . . فما هي أبعاد ذلك الدور التربوي . . ؟

هل يمكن أن تتدخل التربية لتقود ذلك التغير لتحقيق أهداف المجتمع الذي تعمل له . . ومن أجله . . ؟

أم أن دورها يتبعه . . ؟ بمعنى أنها تسير خلفه ، في الاتجاه الذي يحدث فيه دون تدخل منها بالتعديل أو التغيير . . ؟

أم هل تستطيع التربية - في أي مجتمع - أن تدفن رأسها في الرمال وتدعي عدم المسؤولية عما يجري حولها من تغير وتبدل . . ؟

لعلنا نحاول ، خلال هذا الفصل ، أن نستكشف الإجابات على هذه الأسئلة ، والله المعين .

مما لاشك فيه أن الاكتشاف والاختراع يشكلان نقطة البداية في أي تغير يحدث

(*) سبق للمؤلف أن كتب هذا الفصل في كتاب له بعنوان: « التربية ومشكلات المجتمع في دول الخليج العربية » ، وقد أورد هنا لمناسبته لما نحن بصدده عن التغير الذي حدث في جزيرة العرب ، بعد تربية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، للرعييل الأول من المسلمين .

في أي مجتمع⁽¹⁾ وعندما نتحدث هنا عن الاكتشاف والاختراع ، لا ينبغي أن تنصرف أذهاننا فقط إلى الاكتشافات الخطيرة التي نسمع عنها ، أو الاختراعات الحديثة كالقنبلة الذرية أو النووية أو قنبلة الكوبالت أو النيوترون ، أو الموجات اللاسلكية . . أو أية اكتشافات أو اختراعات في ميادين العلم المختلفة ومجالاته المتنوعة .

وإنما قد يكون هناك اكتشاف يبدو بسيطاً في نظرنا الآن ، ولكنه ترك آثارا لا تحمي في حياة البشرية كلها . ولو رجعنا إلى التاريخ الإنساني لوجدنا أن التوصل إلى إشعال النار بواسطة ضرب قطعتين من الحجر ببعضها كان مقدمة لعصر جديد عرف الإنسان القديم بواسطته كيف يطوع الحديد لإرادته .

كذلك فإن اختراع السن المدببة لقطعة من الحجر كان بداية للتوصل إلى اختراع الرماح التي صنعت من غصون الأشجار ، وركبت فيها بعض الرؤوس الحديدية لتصبح أداة حربية خطيرة تقرر مصير معركة .

ولا يبعد عن هذا اختراع العجلة ، وكيف استطاعت بعض شعوب آسيا الوسطى أن تستخدمها حربياً لتهزم المصريين القدماء ، والذين لم يستطيعوا طردهم من أراضيهم إلا بعد أن استوعبوا الاختراع الجديد ، وتعلموه . . وعلموه لأبنائهم - وهذا دور خطير من أدوار التربية - ثم قاتلوا أعداءهم - الهكسوس - به ، وانتصروا عليهم وطردهم من بلادهم محررين أنفسهم وأراضيهم من استعمارهم .

ومن هذا المثل البسيط وجدنا أن المجتمع قد توصل إلى الاكتشاف أو الاختراع ، سواء بجهدده هو أو بجهد غيره من الشعوب الأخرى ، عن طريق المحاكاة أو التقليد والاقتباس ، وأن التربية لم تقف من هذه المستحدثات موقف المحايد أو

(1) Social Change, Sources, Patterns & Consequences. Edited by Amitai Etzioni & Eva Etzioni, Basic - Book Inc, Publishers, N.Y. 1964, p. 431.

السليبي ، وإنما تبنتها وعملت على نشرها وتوصيلها إلى الأجيال الجديدة الصاعدة ،
كي تعد أفرادها للحياة مسلحين بالعلم والخبرة والجديد المتغير.

ويمكن بطبيعة الحال أن نعتم هذا المثال على عصرنا الحاضر ، إذ أن المنهج
في البلدان المتقدمة ينبع من الحركة التي لا تهدأ في المجتمع ، وذلك لأن القائمين
عليه يغيرونه ويطورونه ويعدلونه ، حسب كل جديد مفيد يقع في المجتمع ، بل
وحسب كل جديد تواجهه الجماعة ، سواء كان ذلك الجديد اختراعاً أو اكتشافاً
مفيداً ، أو كان تحدياً خطيراً واجهته الجماعة في حياتها .

ولقد واجه الشعب الأمريكي صدمة عنيفة عام ١٩٥٧م حين أطلق الاتحاد
السوفيتي أول قمر صناعي دوار في الفضاء ، فأصبحت الأمة الأمريكية بما عرف في
تاريخ تربيتها بإسم «حمى سبوتنيك» نسبة إلى اسم ذلك القمر ، وظهرت فيها حركة
هائلة ، على جميع المستويات ، نقداً للذات ، وبحثاً عن أسباب تأخرهم عن
السوفييت ، وانصب كل ذلك على التربية ، وبالذات على المناهج التي تقدم فيها ،
وعلى طرق تدريسها ، وخاصة في مجالات الكيمياء والطبيعة والرياضيات ، وأعقب
ذلك حركة هائلة لتطوير تدريس تلك المواد ، أسهم فيها أساتذة الجامعات بكل
ثقلهم ، كي تخرج المدارس أجيالاً من الشباب يفوقون أبناء الروس . . ولم يهدأوا
حتى وضعوا أول رجل لهم على سطح القمر في ١٩٦٩م ، في سابقة لم تلحق بها أمة
حتى الآن ، على الرغم من مرور أكثر من عشرين عاماً. (١)

(1) - David Tanner: Secondary Curriculum, Theory & development.
The Macmillan Company .N.Y.1971.

- David Tanner & Laurel : Curriculum Development Theory into
Practice, Macmillan Publishing Co., Inc., N.y., 1975.

وأيضاً راجع : محمد عبد العليم مرسي : نزيل العقول البشرية ، عالم الكتب ، الرياض ، ١٤٠٢هـ
- ١٩٨٢م .

- وكذا : محمد عبد العليم مرسي : هجرة العلماء من العالم الإسلامي ، جامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية ، الرياض ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

كذلك فإن المجتمع الأمريكي - أيضاً - قد ووجه في السبعينات من هذا القرن، عقب حرب أكتوبر/رمضان المجيدة (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) بموقف صعب وخطير ، نتيجة للحظر البترولي الذي فرضه العرب على إمداداته إلى الغرب ، وكذلك نتيجة لارتفاع أسعار ذلك البترول ، بشكل لم يعرفه الغرب من قبل ، خاصة وأنه كان قد تعود على أن يصله البترول بأسعار رخيصة جداً . . ربما شبه رمزية . . !!

و حين اشتدت الأزمة بالأمّة الأمريكية عام ١٩٧٤م ، تحرك المسؤولون فيها ، على أعلى مستوى ، كما تحرك العلماء والأساتذة ، في كل موقع من مواقع العمل العلمي . . في الجامعات بأقسامها العلمية المختلفة ، كما في مراكز البحوث العلمية العملاقة التابعة للجامعات . . والحكومة . . بل والشركات الخاصة ، ونشطت أجهزة الإعلام المختلفة وكلها كانت تصب في قناة واحدة هي قناة التربية .

فمن خلال التربية علموا المواطنين . . طلاباً وغيرهم ، جذور المشكلة . . وأبعادها . . كما بينوا لهم أثارها المتوقعة في المستقبل القريب والبعيد ، فيما لو ظلوا على حالتهم الأولى من كثرة الاستهلاك والإسراف في استنزاف الطاقة ثم بينوا لهم السبل الصحيحة . . العلمية . . والعملية . . للحد من ذلك الاستهلاك ، الحد التطوعي . . الذي لا يقوم إلا على الفهم . . والإقناع . . وهذان الأخيران لآيتان إلا من خلال عمل التربية والمربين .

وفوجئنا نحن هنا في الخليج ، كما فوجيء غيرنا كثيرون في العالم ، بانخفاض شديد في الطلب على سلعة البترول ، وصحب انخفاض الطلب انخفاض حاد في أسعار البترول ، وما كان ذلك ليتم بمجرد قرارات حكومية جامدة .

إنما كان الهدف الواضح أمام المسؤولين الواعين هو . . عقل المواطن . . وإحساسه بالمشكلة التي يعاني منها المجتمع ، وإثارتها في أعماق وعيه ، وتوضيح

البدائل المطروحة أمامه ، وتبيان أهمية كل منها وإيجابياته وسلبياته ، ثم يترك بعد ذلك ليحزم أمره ويقر رأيه . ولم يحدث في التاريخ أن خذلت التربية أمة اعتمدت عليها . . وسارت على هداها . . والنتائج واضحة لكل ذي فكر سليم .^(١)

وفي هذا المجال . . مجال التغير والتربية ، هل يمكن أن ننسى التجربة اليابانية التي تكاد تقترب من حدود المعجزة . . ؟

فهذا هو مجتمع ناهض متقدم ، أحست قياداته السياسية أنها قادرة عسكرياً ، وأنها تستطيع أن تضرب من حولها بعنف وقوة ، وبأنها تستطيع أن تفرض إرادتها على غيرها من الشعوب المحيطة بها فلم تتردد ، واستخدمت قوتها العسكرية الحديثة التدريب ، في ضرب الصين ، جارتها الكبرى ، بل وثنت بالاتحاد السوفيتي بعد ذلك بعشر سنوات في معارك مهينة عام ١٩٠٥ م .

ونجحت اليابان فيما مضى ، فانفتحت شهيتها لمزيد من الحروب ، ومزيد من الانتصارات ، وكانت آخر مغامراتها الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور ، مفتحة الحرب العالمية الثانية مع الولايات المتحدة الأمريكية .

وما كانت الحياة لتمضي هكذا سهلة ميسرة بالنسبة لشعب من الشعوب ، مهما كان ، فما من أمة قوية استمرت متسيدة لفترة طويلة في تاريخ العالم إلا وجاءتها قوة أخرى أقوى منها وأعتى فاذاقتها مثلما فعلت هي مع غيرها . . وربما أمر ، وكان هذا هو حال اليابان التي أيقظت العملاق الأمريكي من سباته ، كما قال قائد سلاح الطيران الياباني ذاته . .

(١) للمزيد من الإيضاح حول هذا الموضوع ، راجع كتاب « التربية وقضايا الطاقة » تأليف الكاتب الأمريكي رودني ف . ألن . والمشهور باهتمامه بقضايا الطاقة ، والذي أعدد ٧٥ برنامجاً تربوياً حولها ، ترجمة الكاتب ، وإصدار مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

لقد جندت الأمة الأمريكية كل مصادرها . . المادية والبشرية . . لكسب الحرب ، فدارت مصانعها لتعمل أربعاً وعشرين ساعة في اليوم لتنتج ملايين البنادق والمدافع ومئات الآلاف من السيارات الحربية والدبابات والطائرات ، ناهيك عن السفن الحربية العملاقة ، وخاصة حاملات الطائرات .

وبطبيعة الحال فإن هذا الإنتاج العسكري الهائل كان مدعماً بأنواع أخرى من الإنتاج المدني الذي يسند الجهد الحربي ويدعمه ، فهناك مصانع الغذاء التي لم تكن تتوقف كي تمد جيوش أمريكا . . وأحياناً جيوش حلفائها بمئات الآلاف من الأطنان من الغذاء ، ومثلها مصانع الملابس ، والأدوات الطبية . . إلخ .

وفي نفس الوقت نشطت أجهزة البحث العلمي في كل مجال ، وتوج عمل العلماء الأمريكيين في مجال استخراج الماء الثقيل ، المطلوب لصنع القنبلة الذرية ، تلك الكارثة التي لم يتردد القادة السياسيون والعسكريون في الولايات المتحدة الأمريكية في استخدامها ، كسابقة لم تحدث من قبل في التاريخ ، فألقوها على رؤوس الآلاف من أبناء الشعب الياباني في مدينتي هيروشيما ونجازاكي ، حيث قضت قنبلتان فقط على حياة أكثر من أربعمئة ألف شخص ، في دقائق لا تذكر. !!

وسلمت اليابان . .

وتنازل الإمبراطور ، ابن الشمس ، كما كانوا يطلقون عليه هناك ، عن سلطانه الذي كان الشعب الياباني يعتبره مقدساً .

وياله من تغير . . !!

ودمرت المصانع . . وخربت المدارس . . وأحرقت المزارع . . وأتلفت الطرق . . وهام في شوارع المدن اليابانية ملايين البشر على وجوههم بلا مأوى ، وكان من

بينهم ملايين التلاميذ الذين خربت مدارسهم ، والطلاب الذين تحطمت جامعاتهم ، بالإضافة إلى الخسارة الفادحة التي ضربت التعليم الياباني في الصميم بقتل آلاف من المدرسين الذين دخلوا الخدمة العسكرية على مدار سنوات الحرب .

وعقب توقيع وثيقة الاستسلام في ١٩٤٥ م ، نفضت الأمة اليابانية عنها كابوس الهزيمة العسكرية الماحقة ، وذهبت تبحث عن مستقبل جدير لها بين أمم الأرض ، فكانت وسيلتها . . التربية .

ذهبت إليها . . وهي واثقة من صدق حدسها ، ومن حسن اختيارها . . والقت بأحاملها ومشكلاتها . . بل وبمأسيتها عند أعتابها . . ولم تحذها التربية . . كما هي عاداتها ، مع الأمم التي تعطيها حقها ، والتي تفهم قوتها ودورها ، فدربت شبابها وعلمتهم في مدارسها ومعاهدها وجامعاتها ، بعد أن رصدت للتعليم ميزانية ضخمة بلغت نسبتها من دخلها القومي ١٢٪ ، بينما إنفاقها العسكري لم تزد نسبته عن ٧,٧٪ فقط . .

وأنفقت الأموال في مواضعها الصحيحة ، وبذلت الجهود الصادقة الآمنة والواعية ، فاذا اليابان اليوم لديها ١٠٠٠ جامعة ومعهد عالي ، وآلاف من مختلف أنواع المدارس وطبعت الكتب بمئات الآلاف ، وترجم أكثر منها عن معظم لغات العالم ، كما أن دورياتها العلمية تفوق العشرة آلاف . . !!

والشعب الملهوف على استعادة مكانته تحت الشمس . . يقرأ . . ويتعلم . . ويفهم . . ويطبق . . ويعمل . . وينتج ، فإذا إنتاجه يكتسح أسواق العالم ، حتى أسواق الدول الصناعية الكبرى ذاتها ، والتي بدأت تصرخ من العملاق الاقتصادي الياباني الهائل (*) وما كان ذلك ليتم لولا لجوء اليابان إلى . . التربية ، تواجه بها

(*) في اليوم الأول من يناير ١٩٨٧ م أذيع من راديو المملكة العربية السعودية أن العجز المالي للولايات المتحدة الأمريكية قد بلغ قرابة الستين (٦٠) بليوناً من الدولارات لصالح اليابان ، ولازال هذا العجز موجوداً ونحن قرب نهاية العام ١٩٩٦ م .

متغيراتها الجديدة الصعبة ، فتحولها إلى الاتجاه الذي ترضيه ، بحيث يسير التغيير في الاتجاه الذي يخدم المجتمع الياباني ، ويعمل على تقدمه ورفعته . (★)

ومما لاشك فيه أن جانباً كبيراً من الحديث السابق عن اليابان ، وعن مأساتها التي أنقذتها منها التربية عقب هزيمتها القاسية في الحرب العالمية الثانية ، هذا الكلام ينطبق في جزء كبير منه على الوضع في ألمانيا .

فهذا شعب قاده مسؤولوه إلى خوض غمار حروب عاتية ضد جيرانه في أوروبا ، على أساس دعاوي باطلة من التفوق العنصري ، والاعتداد بالمجد العسكري السالف منذ أيام بسمارك ، والقوة التي اكتسبتها ألمانيا ، عقب الحرب العالمية الأولى والتي استطاعت أن تدور حول بنود اتفاقياتها ، بحيث دربت شباباً أكثر بكثير مما تسمح به هذه الاتفاقيات ، على شؤون القتال ، كما أنها صنعت أسلحة كان محرماً عليها إنتاجها ، وبكميات ضخمة .

ثم بدأت ألمانيا - تحت زعامة هتلر - تهاجم من حولها ، من دول أوروبا الغربية الصغيرة ، ثم اتجهت إلى فرنسا فأذلتها في حرب خاطفة بشكل مهين ، وبدأت في ضرب الإنجليز في عقر دارهم ، حتى أصبحت لندن مدينة محطمة بفعل القنابل الألمانية ، ولم ينج الاتحاد السوفيتي منها في الشرق ، وانهزمت قواته متقهقرة حتى ليننجراد .

بل إن القوات الألمانية قد عبرت البحر المتوسط ، في قسمه الغربي ، وبدأت في التقدم ناحية وادي النيل بقصد احتلال مصر وطرده القوات البريطانية منها ، ثم قطع مواصلاتها إلى الهند . . . ذرة التاج البريطاني آنذاك ، فتقدم «روميل» من

(★) حول هذا الموضوع اقرأ كتاب : التربية في اليابان المعاصرة ، تأليف إدوارد ر. بوشامب ، ترجمة محمد عبد العليم مرسي ، إصدار مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م .

الصحراء الغربية ، تسبقه سمعته العسكرية المدوية .

وتدخلت الولايات المتحدة الأمريكية ، في هذه الحرب ، وألقت بثقلها الرهيب فيها ، وجاءت قواتها وعتادها عبر المحيط الأطلسي لتصب الحمم على رؤوس القوات الألمانية في غرب أوروبا ، على الشواطئ البريطانية والفرنسية والهولندية وغيرها ، وذهبت معوناتها العسكرية وغيرها إلى الاتحاد السوفيتي ، عبر القطب المتجمد الشمالي ، وقرب نهاية الحرب صبت عشرات الآلاف من الطائرات الأمريكية حمولاتها الرهيبة على مدن ألمانيا ، مدمرة الحياة فيها في كل مرفق . . من المصانع . . إلى المزارع ، ومن المدارس . . إلى الجامعات ووقفت قوات دول غرب أوروبا على أقدامها وبدأت تساعد في الحرب ، وتقدم السوفيت من الشرق .

وهزم العملاق الألماني . . كما كان لابد وأن يهزم . . مثله مثل نظيره الياباني . . في أقصى الشرق وكان الوضع في ألمانيا ذا قسوة خاصة ، حيث مزق الوطن الواحد إلى شطرين ، شطر شرقي جثم على صدره السوفيت ، وسمي ألمانيا الشرقية ، وقسم آخر غربي احتله الحلفاء (أمريكا - إنجلترا - فرنسا) ، وسمي ألمانيا الغربية ، وعرف الشعب الألماني طعم الهزيمة والتمزق والاحتلال .

وبعد توقيع وثائق الاستسلام ، بدأ الشعب الألماني ، خاصة في ألمانيا الغربية ، يزيل الحطام ، ويظفيء الركام ، ويدفن الأشلاء ، ويزيل أنقاض ما خرب ، ويفكر في المستقبل الغامض الذي ينتظره .

وظهر من بين رجاله أفراد ذوو بصيرة ثابتة وعزيمة لاتلين ، فاتجهوا فوراً للتربية . . طلباً للإنقاذ وسعياً وراء المخرج ، وكان اهتمامهم كبيراً بالتربية في صورتها العملية والتدريبية . . وبنيت المصانع هنا وهناك واتصلت خيوط العلم في الكليات والمعاهد الصناعية بخطوط الإنتاج في المصانع .

وبدأ العالم يقرأ عن الإنتاج الألماني المتفوق ، وعن المخترعات الألمانية المتميزة ،
وبدأ المارك الألماني ينافس الجنيه الأسترليني . . بل والدولار الأمريكي ، وأصبح مثله
في القوة - نتيجة للإنتاج الهائل - مثل نظيره الين الياباني في أقصى الشرق من آسيا .
ووضح للعالم أن الدولتين اللتين هزمتا شر هزيمة في الحرب العالمية الضروس
هما الدولتان اللتان تقودان جزءاً كبيراً من اقتصاد العالم الحديث ، وأنها تتحكمان في
كثير من صناعاته وصفقاته واتفاقاته التجارية ، وحين يتحدث الناس من عمالقة
الاقتصاد في العالم من الدول ، لا بد وأن يأتي ذكر اليابان . . وألمانيا^(*) . والفضل في
كلتا الحالتين هو للاستثمار الرائع في العنصر البشري . . والذي لا وسيلة له ، ولا
سبيل إليه إلا . . التربية^(١) !!!

وهكذا . . مرة ثانية . . وثالثة . . أثبتت التربية أنها أفعل شيء في حياة
الشعوب التي تعي معناها وقوتها كما أثبتت أنها - أي التربية - تستطيع أن تقود
التغير في الوجهة الصحيحة السليمة ، التي تأخذ بالمجتمع إلى الأمام . . نحو
التقدم .

ولعل الأمثلة السابقة ، من الشرق والغرب ، تبرز وتوضح ما كتبه كتاب
«دائرة معارف التقويم التربوي» عن الأعباء الثقيلة التي تلقىها تغيرات العصر على
أكتاف التربية والقائمين على أمرها ، وذلك حين قالوا « إن التغيرات التي تحدث في
عالم اليوم في المجتمع ، سواء في المجالات السياسية أو الاقتصادية ، أو في مجالات

(*) في صبيحة اليوم الأول من ديسمبر ١٩٨٦م أذيع في الراديو السعودي أنه لأول مرة في التاريخ فاقت
قيمة الصادرات الألمانية نظيرتها الأمريكية ، حيث بلغت ٢٢٠٠ بليون دولار خلال عام
١٩٨٥م . . ١١ .

(١) هانز ب . لينجنز: التربية في ألمانيا الغربية نزوع نحو التفوق والامتياز، ترجمة محمد عبد العليم
مريسي، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

التكنولوجيا المختلفة ووسائل الاتصال المتنوعة ، تلقى عبئاً ثقيلاً على التربية وعلى جميع المؤسسات العاملة في ميدانها ، كي تواجهها ، وتعامل معها حتى لا تتخلف عن العصر. (١)

ويمس هذا الجانب أحد كبار رجال التربية في عالمنا العربي ، د. الهادي عفيفي ، عليه رحمة الله ، فيكتب عن حساسية التربية وما ينبغي أن تكون عليه ، فيما يتعلق بما يجري في المجتمع حولها من تغيرات « إن التربية ينبغي أن تكون حساسة للتغيرات التي تحدث في المجتمع ، وهذه الحساسية تفرض عليها أن توثق صلتها بالمجتمع ومجريات الأمور فيه ، وبالمشكلات التي تواجهه ». (٢)

بل إن بعض الكتاب الأمريكيين لا يكتفون بالأدوار التي تلعبها التربية في مواجهة مشكلات مجتمعهما ، وإنما يقولون بأن هذه التربية ينبغي حتى أن تتعمق في مشكلات أفراد المجتمع الشخصية . ولعلمهم في ذلك يريدون أن يبينوا أن الفرد الذي تواجهه بعض المشكلات في مجتمعه ، نتيجة لبعض التغيرات ، هذا الفرد يصبح عضواً حياً وفعالاً في المجتمع إذا تدخلت التربية وحلت مشكلاته هو ، وبالتالي يكون إسهامه وإنتاجه في المجتمع أفضل . . وهل المجتمع إلا مجموعة من الأفراد . . (3)

هذا ويضرب لنا مؤلفو كتاب «التغير الاجتماعي» ، والذي يعتبر مرجعاً حيويًا في الميدان ، مثلاً على بعض التغيرات التي تحدث في المجتمع ، وعلاقة ذلك

(1) Encyclopedia of Educational Evaluation, Jessey Bass publishers, Washington, 1975.

(٢) محمد الهادي عفيفي : التربية والتغير الثقافي، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٣٤٩ .

(3) Morise Kogan and Margeret pope (Ed) The Challenge of change NFER Publishing Company, Windsor, 1972.

بالتربية، وذلك من خلال الصناعات الجديدة التي يتبناها المجتمع ، ومن خلال الأنماط الاستهلاكية للسكان وعاداتهم في حياتهم ، وأن التربية عليها - في هذه الحالة - أن تستجيب لهذه التغيرات ، وأن تكون واعية لحدوثها ، فتأخذها لتدرسها ولتين أثارها ، وكيفية مواجهتها والتعامل معها .

وهم يقولون في هذا المجال : إن الصناعة يطلق عليها مصطلح «المتغير المستقل Independent Variable» وذلك لأن الصناعة جاءت أولاً وأثرت في المجتمع . . سلباً أو إيجاباً، ثم جاء فعل التربية ، بعد ذلك تابعاً لفعل الصناعة. (١)

ولعلنا نتوقف هنا لنوضح هذا المعنى ، من واقع بعض دول الخليج العربي ، فنقول إن بعض هذه الدول أخذ يتجه بقوة نحو التصنيع ، وذلك كما هو الحال في المملكة العربية السعودية ، حيث نجد الأمثلة على هذا التصنيع في المشروعات الضخمة في كل من الجبيل وينبع .

إن إدخال التصنيع بكثافة يغير كثيراً من عادات الناس وتقاليدهم ، وأحياناً قيمهم ، كما أنه قد ينتج عنه بعض المشكلات ، خاصة فيما يتعلق بالعمالة ، عندما ينتقل أفرادها من الريف ، أو من مضارب البدو ، للسكن قرب المصانع التي يعملون فيها ، حيث تتغير نظرتهم إلى الحياة ، في ضوء أعمالهم الجديدة ، متأثرة بالقيم المادية التي بدأوا يعيشونها ، علاوة على تأثرهم - بشكل جديد - بعنصر الوقت الذي أصبح يلعب دوراً بارزاً في حياتهم .

ولانغفل هنا طريقتهم وأساليبهم في قضاء وقت الفراغ ، في المدينة وقرب المصانع ، كما لا يغفل أيضاً ابتعادهم عن الروابط العائلية التي كانت تربطهم بذويهم

(1) Social Change, Op. Cit., p. 459.

في الريف ، وتأثرهم الذي كان بالعلاقات المباشرة هناك ، التي حلت محلها مجموعة مختلفة تماماً من العلاقات ، تحكمها قيم لا تمت إلى القمية بصلة ، وحول هذا المعنى يقول محيي الدين صابر : « إن حدوث التغير في أي جانب من جوانب المجتمع لا يقتصر أثره على هذا الجانب فحسب ، بل هو يتعداه إلى كثير من الجوانب الأخرى في سلسلة متتابعة ومتزايدة من ردود الأفعال ، ذلك وأن تعرض عنصر حضاري لتغير جوهرى ، يعرض النسق الحضاري كله للتغيير ، إن الوقائع والنظم الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية ، وسائر التنظيمات القائمة في المجتمع ينبغي أن تتجاوب تجاوباً عميقاً مع هذا التغير الجديد»^(١)

ومما لاشك فيه أن للتربية الدور الأكبر في تغيير القيم التي ترتبط بالأوضاع الجديدة وإحلال قيم جديدة محلها ، وكذلك في خلق الوعي لدى المواطنين لتقبل الجديد ، وللتكيف معه وفي حث الناس على أن يسلكوا مسلكاً معيناً ، وغرس العادات التي تتطلبها المواقف الجديدة ، الناجمة عن التغير الجديد .

والتربية عندما تقوم بإحداث التوازن في المجتمع عن طريق توضيح العلاقات ، وشرح المستحدثات ، وما يصاحبها من تغيرات ونتائج ، إنها تقوم بوظيفة هامة من وظائفها ، حتى لا يختل البناء الاجتماعي ، « إن الكثير من المخترعات الحديثة إذا ماتركت وأثارها ، دون أن تكون هناك خطة تربوية لاستيعاب هذه التغيرات وشرحها وتحديد موقف المجتمع منها ، فإن هذه الآثار تكون ضارة بالمجتمع في كثير من الأحيان»^(٢) .

(١) محيي الدين صابر: التغير الحضاري وتنمية المجتمع ، سرس اللبان، ١٩٦١م، ص ٣٠٧.

(٢) هناك عدد من الكتابات والرسائل العلمية حول هذا الموضوع منها :

- فتح الله سعد هلول ، محمد رياض الغنيمي : الآثار الاجتماعية والاقتصادية للتصنيع .
- ابراهيم عبد الحمد أبو الغار : الآثار الاجتماعية والاقتصادية للتصنيع في الجمهورية العربية المتحدة .
- أحمد النكلاوي : التغير والبناء الاجتماعي .
- حسن الساعاتي : التكنولوجيا والمجتمع .
- محمد عبد العليم مرسي : دور التربية في مواجهة الآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على كهربية الريف ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

وكل هذه التغيرات السابقة الناتجة عن التحضر والتصنيع وإدخال عناصر التكنولوجيا المتنوعة إلى المجتمع ، ينتج عنها تغيرات عميقة الأثر في قيم المجتمع وعاداته وتقاليده ، وكل هذه التغيرات . . هنا . . هي ومعها أسبابها من تصنيع وتكنولوجية ، تمثل العامل المستقل ، الذي سبق الحديث عنه .

والتربية بملاحظتها للصناعة والتكنولوجيا والتحضر الناتج عنهما ، وبملاحظتها للتغير الحادث بشأنها في المجتمع ، وبمحاولاتها المستمرة رصد مظاهر هذا التغير، ودراسة أسبابه ونتائجه ، ومحاولاتها تكييف المجتمع وإعداده لمواجهة كل ذلك تمثل هنا . . العامل التابع . . لأنها تبعت كل ذلك فعلاً وحدوثاً .

ولكن قد يحدث أن تتدخل التربية ، من خلال معاهدها ومؤسساتها المختلفة من الجامعات والمدارس الصناعية ومعاهد التدريب ، بإعداد الناس وتدريبهم كي يكونوا صناعاً ماهرين ، أو مهندسين فنيين مبدعين ، أو خبراء رفيعي المستوى ، أو هي قد تتدخل بإعادة التدريب . لرفع مستوياتهم الإنتاجية ، وهي هنا تصبح - أي التربية - العامل المستقل .

وفي هذه الحالة تصبح الصناعة العامل التابع ، لأنها سوف تستفيد من عمل التربية ، ومن جهود العاملين في ميدانها ، ولعل هذا هو الذي دفع واحداً من رجال التربية الغربيين إلى القول بأن « التربية لا ينبغي أن يكون دورها دور التابع فقط ، وإنما يجب أن تأخذ المبادرة الفعلية ، وأن يكون دورها هو دور القائد والموجه ، سعياً وراء مصلحة المجتمع ، وتحقيقاً للمنفعة فيه ، وعملاً على تكييف أفرادها لكل تغير جديد يعترى الحياة في المجتمع ، أو يعترض مجرى الحياة فيه» .

إن التغيرات الحاصلة في المجتمع ، مهما كان نوعها ، ومهما كان اتجاهها وسرعتها ، هي بالدرجة الأولى مسؤولية التربية . إن هذه التغيرات « ينبغي ألا تترك

في سيرها غير المنتظم ، بل يجب أن تقوم على أساس من التفكير والبصر ، ليتوافر لها التوجيه والتقدم ، ومن ثم ينبغي ألا تقنع التربية بما هو كائن ، بل ينبغي أن تنظر إلى الأمام ، أي إلى المستقبل . . لتدرك ما قد يحدث من أزمات وتوترات اجتماعية ، وتحاول الإسهام بنصيبها في حلها ومواجهتها ، وتزويد الناشئين - من أجل ذلك - باتجاهات عقلية اجتماعية تتناسب مع هذه المسؤولية الجديدة .

ولا تقف مسؤولية التربية عند هذا الحد ، إذ يجب ألا تقتيد في تصورها بما يحدث من تغير بالفعل ، بل عليها أن تكون قوة إيجابية لخلق أنواع أخرى من التغيرات المرغوب فيها ، من هنا يصبح عليها مسؤولية أخرى ، هي الاهتمام بتنمية القيادة الاجتماعية القادرة على التفكير والابتكار^(١)

لقد سادت فترة من التاريخ الإنساني كانت التربية فيها تقوم بدور المحافظ على ثقافة المجتمع . . كما هي . . دون تدخل فيها بالنقد أو محاولة التوجيه ، أو التعديل ، ولقد عرفت هذه الوظيفة « بالوظيفة المحافظة للتربية » .

حقيقة إن التراث الثقافي Cultural Heritage هو ملك المجتمع ، ويجب المحافظة عليه بالفعل ، ولكن من جانب آخر فإن التربية هي وسيلة المجتمع لتعليم الأجيال الصاعدة كل شيء عن الجماعة التي يوجدون فيها ، حتى يستطيعوا العيش ضمن إطارها ، وفي ضوء الأهداف التي ارتضتها لنفسها .

وبما أن التربية تتحمل هذا العبء ، فإنه يصبح من واجبها أن تتحمله بأمانة بحيث تدل المجتمع على نواحي النقص والقصور في تلك الثقافة ، وفي ذلك التراث الثقافي ، بحيث تستطيع الأجيال الصاعدة أن تنقيه مما يوجد فيه من شوائب تكون قد علقت به خلال تكونه على مر الزمان .

(١) محمد الهادي عفيفي ، مرجع سابق ، ص ص ١٤٤-١٤٥ .

إن التربية بمؤسساتها المختلفة - على سبيل المثال - لا تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدي أمام استخدام سيء لمصادر الثروة الطبيعية في مجتمعها أو تلويث البيئة ، إن عليها أن تنبه مجتمعها إلى ذلك ، وأن ترى أفرادها أمثل الطرق والأساليب لتفادي ذلك . (1)

ليس هذا فحسب ، بل إن بعض المربين يتحمسون هذه الأيام لفكرة أخرى مؤداها أن المدرسة التي هي المؤسسة التربوية الأولى التي عهد إليها المجتمع بتربية أجيالها الصاعدة ، لا ينبغي أن يقف دورها فقط عند مجرد حل المشكلات التي يواجهها المجتمع ، وإنما عليها أن تعد دراسات المتعمقة . . مسبقاً . . بحيث لا تنتظر التغير حتى يقع ، وإنما عليها أن تتوقع هذا التغير ، كما يجب أن تتوقع المشكلات التي يمكن أن تصاحبه في كل مجال ، فتدخلها في مناهجها ومقرراتها ، وتدرسها للطلاب ، بحيث لا يفاجئهم التغير ، ولا تفاجئهم مشكلاته ، وما ينتج عنها من مضاعفات سيئة . (2)

وفي التاريخ الحديث للتربية نجد أن هناك حالة خاصة مرت بها الولايات المتحدة الأمريكية ، خلال بداية الثلاثينات من هذا القرن ، وهي حالة الكساد العظيم The Great Depression ، وهي الفترة التي عانت فيها تلك الأمة - بشكل حاد لم يسبق له مثيل - من التدهور الاقتصادي والكساد الذي حل بإنتاجها ، وخاصة عندما انخفضت أسعار القطن الأمريكي الذي كان يصدر للخارج ، بحيث كانت أسوأ أمريكية كثيرة العدد ، يعمل أفرادها جميعاً بهمة ونشاط

(1) John Jarolimek: The School in Contemporary Society, An Analysis of Social Current Issues & Forces. The Macmillan Publishing Company, N.Y, 1981, p.6.

(2) Ibid., Q.75.

- صغاراً وكباراً - طوال اليوم . . فقط كي يؤمنوا لأنفسهم شيئاً يقتاتونه . . !!
ولقد اهتمت المدرسة الأمريكية - آنذاك - بأنها لم تسهم بأي دور إيجابي نشيط
في التعامل مع ذلك التغير الاقتصادي/ الاجتماعي المأساوي الباعث على اليأس ،
فبينما كان المجتمع كله يعاني من البؤس والفقر ، كانت المدرسة مستمرة في طريقها
العادي ، تقدم برامجها ومناهجها العادية ، وكأن شيئاً لم يكن ، أو كأن ما كان يجري
خارج أسوارها لم يكن يعنيها . . !!

ومنذ ذلك الحين هوجم هذا الأسلوب الذي اتبعته المدرسة الأمريكية ، إبان
أزمة الكساد العظيم ، وكتب المربون المهتمون بأن المدرسة التي ينفق عليها المجتمع
من أمواله ، والتي يرسل إليها أبناءه ، ينبغي أن يكون لها دور فعال في العمل على
حل مشكلات ذلك المجتمع ، ومواجهة مصاعبه .

هذا ولقد كتب بروفيسور كاونتس Prof George S. Counts بهذا المعنى
إلى المؤتمر القومي للتربويين الأمريكيين ، حول الدور الذي ينبغي أن تقوم به التربية
في التغير الاجتماعي ، وأكد على حتمية ألا تتخلى التربية عن القيام بهذا الدور . (1)
ولم يكن الأمر سهلاً ، بطبيعة الحال ، بحيث تندفع المدرسة لتغير مناهجها
وخططها وأساليبها الدراسية ، بفعل كتابات بعض العلماء والمهتمين ، وإنما الأمر
المؤكد أنه كانت لكتاباتهم أثار واضحة ظلت تعمل في العقلية الأمريكية وتختمر ،
حتى جاءت الصدمة الكهربائية العنيفة التي مست عصب الأمة الأمريكية
الحساس ، خاصة وأنها جاءت من الخارج متمثلة في « همى سبوتنيك » التي سبقت
الإشارة إليها .

وانهال النقد على التربية بمناهجها ، وعلى التربويين بتفكيرهم ، وعلى

(1) Ibid., pp.76-77.

المدرسين بأساليهم ، واتهمت التربية بصفة عامة بأنها لو كانت على مستوى المسؤولية لما تفوق السوفيت على الأمريكيين ، ولو كان التعليم الأمريكي جيد النوعية لما تفوق إيفانوف - كمثل على الطفل السوفييتي - على نظيره جون - كمثل على الطفل الأمريكي .

وكانت فترة الستينات هي الفترة الرائعة في حياة التربية الأمريكية ، حيث انغمست في مشكلات مجتمعتها تبحثها ، وتحاول أن تقف على جذور تلك المشكلات ، وتحلل أبعادها وأسبابها ، وتستقصي أثارها وتتوقع نتائجها . وأدخلت إلى المنهج موضوعات حساسة وخطيرة ، وبالتحديد في مناهج الدراسات الاجتماعية Social Studies . ولقد دار بعض هذه الموضوعات حول الظلم الاجتماعي ، والاضطهاد العنصري ، والتفرقة بين الأجناس ، وباقي العلل الاجتماعية ، والأمراض الأخرى التي يعاني منها المجتمع الأمريكي⁽¹⁾ . والذين يذكرون التاريخ جيداً يعرفون أن فترة الستينات بالتحديد ، كانت فترة عصيبة في حياة المجتمع الأمريكي وصلت إلى حد الصدام الخطير بين قوات البوليس وطلاب الجامعات الملونين وغيرهم من شباب الجامعات ، وكانت حرب فيتنام من أسباب ذلك .

هذا ولقد تبنى المجلس القومي للدراسات الاجتماعية The National Council of the Social Studies آنذاك دعوة مؤدائها أن المدرسة ينبغي أن تلعب دوراً فعالاً في تحسين ظروف المجتمع ، وذلك عن طريق غرس المهارات المطلوبة في الأجيال الصاعدة للعمل على « إحداث التغيير » الاجتماعي المطلوب في الأمة . . . وليس فقط مواجهة ذلك التغيير .⁽²⁾

(1) Daniel Tanner, Op. Cit, p.4.

(2) Daniel Tanner & Laurel Tanner, OIp. Cit., p232.

وخرجت فكرة عظيمة حقاً تقول بأنه لحدود للمنهج . . إلا حدود الحياة ذاتها (*The boundaries of the curriculum would be the boundaries of life وكان معنى ذلك أن يمتد نشاط المدرسة - والتربية بطبيعتها الحال - لتشارك في كل شيء في المجتمع ، لأن الفصل بين المدرسة ومنهجها ، وبين الحياة وما يجري فيها ، فصل تعسفي اصطناعي معوق للتقدم ، وإذا كان قد سمح به فيما مضى . . فلا يجب أن يستمر بعد الآن .

ولكي تضع المدرسة الأمريكية ما سبق من أفكار وآراء موضع التنفيذ وضع خبراء المناهج نصب أعينهم أن تتضمن أساليب التدريس الجديدة ما عرف باسم «أسلوب أو طريقة حل المشكلات Problem Solving Method ، بحيث يستطيع الناشئون الجدد أن يواجهوا مشكلاتهم التي تعترضهم في الحياة كأفراد ، وبحيث يسهمون أيضاً في حل مشكلات مجتمعهم المحلية التي يعيشون فيها ، ومن هنا تصبح المدرسة مركزاً حساساً يسعى لخدمة المجتمع ، ولا ينفصل عنه ولا عن مشاكله ، كما قال بذلك ديوي وكاونتس . (١)

هذا ولقد اتبع ذلك الأسلوب التربوي الجديد ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، مع طلاب العلم في المراحل الدراسية المختلفة ، كما اتبع أيضاً في مجال إدارة الأعمال ، ومجال البحث العلمي وعلاقته بالمشروعات التجارية الكبرى ، حيث أن الهدف هو حل المشكلات التي تواجه الأفراد ، عن طريق تفتيت المشكلة إلى عناصرها الأولية المكونة لها ، ثم دراسة كل عنصر أو كل جزئية على حدة للوقوف

★ حول هذا المعنى راجع كتابي المؤلف :

- نزيه العقول البشرية .

- هجرة اللهاء من العالم الإسلامي .

وقد سبقت الإشارة إليهما من قبل في هذه الدراسة .

(1) Daniel Tannr & Lawrel Tanner, Op. Cit., p.2332.

على أين تكمن العقدة أو المشكلة . (1)

كان هذا هو حال المدرسة الأمريكية . . مواجهة للتغير . . بل والسباق معه ، بحيث تسبقه ، وتستعد له ، وتسليح النشء الجديد بالأسلحة التي يواجهونها بها ويتعاملون معه ومع عناصره ، بل وأكثر من ذلك « إحداث التغير » المطلوب في حياة الأمة (٢) .

ولكن الأمر اختلف كثيراً جداً في إحدى مدارسنا ، التي فاجأها التغير فأذهلها ، وأصابها بالشلل ، ولم تعرف كيف تتصرف ، وظلت واقفة . . حائرة . . مدهوشة ، وهي ترى المجتمع من حولها يتغير بسرعة ، وطلابها يسرون في تيار التغير الجديد . . ويتسربون منها واحداً وراء الآخر . . حتى لم تجد منهم أحداً يريد برامجها . . ولا مناهجها . . فأغلقت أبوابها . . وكانت مأساة . . !!

ففي إحدى قرى محافظة الغربية بمصر ، وهي قرية «شبرا ملس» أدخلت صناعة جديدة على القرية ، هي صناعة الكتان ، واحتاجت الصناعة إلى الأيدي العاملة الرخيصة فلجأت إلى الأطفال والشباب الصغار .

وكان بالقرية مدرسة ابتدائية واحدة ، وجد أطفالها في المصنع الجديد فرصة طيبة لكسب شيء من المال ، يدعمون به أسرهم الفقيرة ، فلم يترددوا . وكان هذا تغيراً كبيراً جداً في حياة القرية كلها . . فالآباء بدأوا يعملون . . وكذا أطفالهم ، وازداد دخل الأسرة بشكل ملموس ، فازداد عدد المتسربين من المدرسة . . يوماً بعد يوم حتى لم تجد إدارتها بدأ من التفكير في إغلاقها فترة ازدهار صناعة الكتان

(1) Sandford W. Reitman, Society and Change, Allyyn & bacon Inc, Boston, 1981,p 32.

(٢) محمد عبد العليم مرسى : المعلم . . والمناهج وطرق التدريس ، دار الإبداع الثقافي ، الرياض ، ط ٢٠٢١هـ - ١٩٩٥م .

.. وكانت قمة المأساة عام ١٩٦٤م عندما اضطرت المدرسة لإغلاق أبوابها
تماما .. !!

المهم في هذه القصة الحقيقية ، التي جاءت في رسالة علمية موثقة ، أن
الفلاحين الذين جذبهم الإغراء المالي لفترة من الوقت ، فسحبوا أبناءهم من
المدرسة ، هؤلاء الفلاحون أنفسهم هم الذين أعادوا أبناءهم إلى المدرسة ، بل وأكثر
من ذلك ، هم الذين تبرعوا لإقامة مدرسة متوسطة بجهودهم الذاتية . عندما
هبطت حدة الازدهار الصناعي في قريتهم . (١)

والعبرة التربوية والاجتماعية من هذه القصة ، هي أن المدرسة لم تستطع أن
تواجه التغير الجديد في مجتمعها وكانت تستطيع أن تسهم فيه بطريقة أو بأخرى ،
بحيث يستفيد طلابها من عناصره الجديدة ، وفي نفس الوقت لا ينصرفون عنها ،
والجانب الثاني هو أن أفراد المجتمع كانوا واعين لدور المدرسة ولحاجتهم إليها ،
ولكن العوز المادي جعلهم يقفون منها موقفاً سلبياً . . أول الأمر ، حتى إذا ما زال
هذا العوز المادي . . عادوا إلى المدرسة مسرعين . . واعين . . فاهمين . . بل
ومتبرعين من أموالهم الخاصة لإنشاء مدرسة جديدة ، على الرغم من مستوياتهم
الاقتصادية المتواضعة . . !!

وبقى على أهل التربية ، والمخططين لها في مجتمعاتنا أن يعوا أبعاد التغير
الاجتماعي والاقتصادي الذي يقع من حولهم ، وأن يضعوا في حساباتهم أن المدرسة
ينبغي أن تكون هناك . . مع التغير . . وحوله . . بل وأمامه . . تقوده وتوجهه . .
كما تفعل شقيقاتها في المجتمعات المتقدمة . . في شرق ، وفي غرب .

(١) عبد الفتاح الششتاوي : أثر الصناعة في القرية مع بحث ميداني لتوطن صناعة الكتان في قرية
شبراملس - غربية - رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب عين شمس ، ١٩٧٢م .

هذا وهناك بعض التربويين الذين يتبنون فكرة مؤداها أن التربية محافظة بطبيعتها ، وأن من أهم وظائفها أن تحافظ على الذات الثقافية للمجتمع الذي توجد فيه ، ولكن بجانب ذلك فإنها ينبغي أن تعمل - قدر المستطاع - على ألا يكون هناك إلا أقل القليل من التخلف الثقافي Cultural lag⁽¹⁾

ومعروف أن هذا التخلف الثقافي ناتج عن الاختلاف في معدلات السرعة التي يحدث بها التغيير في أي مجتمع . إن التغيير عندما يقع في أي مجتمع تتأثر أجزاؤه ومكوناته به ، ولكن بعض الأجزاء يكون تأثرها أعمق وأسرع من غيرها ، وتبقى الأجزاء الأخرى وهي أقل وأبطأ تأثراً ، وهذا هو ما يطلق عليه مصطلح «التخلف الثقافي» .

ولقد ضرب علماء الاجتماع على ذلك أمثلة كثيرة من واقع المجتمعات الأوروبية ، حين أخذت بالتصنيع ، فلقد تقدموا في الأخذ بأساليب الصناعة الميكانيكية الجديدة ، ولكن الجانب القيمي والأخلاقي كان متأخراً متخلفاً ، خاصة حينما لم تصدر تشريعات عادلة في نفس الفترة لتحمي حقوق العمال ، كما أنه لم تكن هناك قوانين تمنع استغلال الأطفال الصغار في بعض الأعمال الشاقة ، وكذا النساء .

إن دور التربية هنا هو تنبيه المجتمع إلى ذلك النوع من التخلف ، وأن توضح لأفراد مجتمعه مخاطر وجوده ، وأن تسهم في مواجهته . وعلى سبيل المثال فإن السيارات قد كثر استخدامها بشدة في دول الخليج العربي ، ولكن هناك أداباً وتعليمات وتدريبات كان يجب أن تصاحبها . . بل حتى تسبقها ، بحيث تقل حوادث الطرق السريعة وكذا حوادث المرور داخل المدن ، والتي تصل إلى عشرات الألوف سنوياً ينتج عنها جرحى وقتلى كثيرون جداً .

(1) Ivory Marrish, Op. Cit., pp.70-73.

ولو أن شيئاً من التعليم لهذه الآداب والتدريبات قد سبق ركوب السيارة ،
إذن لكنا وفرنا للمجتمع طاقات بشرية هائلة يحتاجها للتنمية ، ذهب أفرادها
ضحايا ما بين قتيل خسره المجتمع إلى الأبد ، وجريح مقعد سوف يعيش باقي حياته
متحسراً يحتاج من يراعه . . ولا ينبغي أن نغفل هنا العنصر المادي أو الاقتصادي ،
فالأمة تنفق من أموالها ملايين الدولارات ، وربما بلايينها - بسبب هذه الحوادث -
على شكل سيارات محطمة ومصروفات للعلاج في المستشفيات . . إلخ .

لقد كان من الممكن للتربية أن تتدخل هنا بالعلاج الناجع ، كما فعلت
زميلتها في المجتمع الأمريكي ، فتفرض مقرراً معيناً في قيادة السيارات ، لا بد أن يمر
خلاله . . وينجح فيه . . كل طالب في المرحلة الثانوية ، وهو مقرر يجمع بين
الجانبيين النظري والعملي . . في كل شيء يتعلق بالسيارة وآداب قيادتها ومهاراتها
المختلفة . كما أن هذه المدارس كان يمكن أن تكون أماكن لتدريب المواطنين
العاديين من غير طلبتها ، بحيث تعم الفائدة على طوائف أخرى من المجتمع .

ونحن هنا في المنطقة العربية - قلب العالم الإسلامي - خاصة وقد ركزنا
حديثنا على الجديد . . وعلى التغير . . وعلى موقف التربية منها ، يجب أن نكون
واعين ، ونحن نتحدث عن الدور الخطير للتربية ، إذ أنها وهي تنغمس في الجديد
ومشكلاته وفي محاولة إيجاد الحلول لها لا ينبغي أن تدير ظهرها لتراث الأمة ، وما
يحتويه من أسس وعمد للحاضر والمستقبل ، وهو التراث الإسلامي العريق .

إن التربية ينبغي عليها أن تبحث في هذا التراث ، وأن تستخرج الحكمة من
بين كنوزه ، وأن تعمل على تنقيته مما قد يكون قد علق به من شوائب ، وذلك حتى لا
نقع ضحايا أزمة الأخذ بأساليب التقدم الحديثة التي لم نستعد لها تماماً ، وفي نفس
الوقت نفقد صلتنا بباضينا التليد . إن معالم تلك الأزمة عندنا تشبه إلى حد ما معالم

الأزمة العالمية السائدة في الخارج بين الشباب ، إلا أنها تزداد عمقاً وخطراً ، إذا تذكرنا أنها تقوم في مجتمع ما يزال متخلفاً ، وما يزال بعيداً عن البنى العلمية والتقنية والصناعية التي نشهدها في العالم المتقدم . إن معنى هذا ، كما يقول أحد مفكرينا التربويين «إن مجتمعنا قد يحمل الغرم دون أن يصيب الغنم ، وقد يفقد الحسنيين معاً . . فلا هو أصاب التقدم التقني والصناعي الذي يدفع ضريبته وفديته ، ولا هو حفظ قيمه وتراثه وسلطان مؤسساته التقليدية» . (١)

وقبل أن نختم هذا الجزء الخاص بالعلاقة بين التربية والتغير ، ينبغي أن نشير إلى الرأي القائل بأن التربية في علاقتها بالتغير الحادث في المجتمع ، يمكن أن تكون عاملاً من عوامل التغير ، أو وسيلة من وسائله Agent ، كما أنها يمكن أن تكون شرطاً من شروط حدوثه Condition ، وفي نفس الوقت فإنها قد تكون أثراً من آثاره ، أو نتيجة من نتائجه Effect (2) .

أما كون التربية عاملاً Agent من عوامل التغير ، فمعناه أنها تربي الأجيال الصاعدة من أبناء المجتمع ، وتعلمهم وتدريبهم على ما في المجتمع من قيم وعادات وتقاليده ، بحيث يفهمونها ويتعاملون مع بعضهم ، ومع الآخرين على أساسها ، وطبقاً للمعايير التي ارتضاها المجتمع لنفسه ، وهذا هو الجانب الرسمي Formal لدور المدرسة .

ولكن هناك أدواراً أخرى تقوم بها المدرسة دون إعداد مسبق ودون قصد ، ونعني بذلك ما يتعلمه الناشئة من بعضهم عن حياة مجتمعهم ، إذ أن الشباب ،

(١) عبد الله عبد الدايم : الثورة التكنولوجية في التربية العربية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ص ٦٥ .

(2) Donald A. Hansen & Joel E. Gerstle (Editors): On Education-

Sociological Perspectives, John Wiley & Sons Inc., N.Y., 1967,p.70.

وحتى الأطفال ، يتعلمون أشياء كثيرة ، قد يطلق عليها البعض اسم أو مصطلح «المنهج الخفي The hidden curriculum» من خلال احتكاكهم اليومي ببعضهم ، ومن خلال معاملة الإدارة وهيئة التدريس لهم . وكل ذلك يمد هؤلاء الأطفال والشباب بخلفياتهم الثقافية التي توحد بينهم . . مواطنين ذوي لغة واحدة ، وعادات وقيم مشتركة ، بالإضافة إلى أنها تنمي إيمانهم بوطنهم الواحد. (1)

أن كل هذه التغيرات والتفاعلات التي تحدث في شخصيات الشباب الصغار إنما تجعلهم في مجموعهم ، من عوامل التغير ومن وسائله ، لأنهم يصبغون جاهزين لتقبله وللتعامل معه ، وللأنماط الجديدة التي يحضرها معه .

أما كون التربية شرطاً Condition من شروط التغير ، فهذا يعني أن المدرسة بإعدادها للمواطنين ، وتدريبها لهم على الأدوار التي سيقومون بها في مؤسسات المجتمع المختلفة ، حكومية وغير حكومية ، إنما توضح بجلاء أنه بدون إعداد هذه العناصر البشرية الإعداد السليم لا يمكن للتغير أن يأخذ مكانه ، أو أن يسير في الاتجاه المرغوب فيه بنفس السرعة التي يتمناها المسؤولون أو يخططون له .

ونظرة متأنية إلى إحصائيات التعليم ، في دولة واحدة من دول الخليج العربي ، هي المملكة العربية السعودية ، تبين لنا الجهود الكبيرة التي بذلت في ميدان التعليم ، والتي كان من نتيجتها أن ازدادت أعداد المتعلمين من أبناء المملكة ، وتنوعت معاهد تعليمهم وإعدادهم ، بحيث حملوا - بعد تخرجهم - عبء التنمية والتقدم . . والتغير ، ولولا ذلك لتعثرت - دون شك - خطط التنمية ، إلى حد بعيد . . أو لتعطلت لبعض الوقت ، على أقل تقدير .

لقد ارتفعت أعداد الخريجين الحاصلين على درجة البكالوريوس من ١٨٨٥

(1) Ibid., P.86.

طالباً وطالبة عام ١٣٩٥/٩٤هـ إلى ٣٧٧٩/٩٨ عام ١٣٩٩هـ ، ويقدر عدد الخريجين عام ١٤٠٠/٩٩هـ بحوالي ٤٠٠٠ طالب وطالبة وفي أحدث الإحصاءات الصادرة عن المملكة أن الخريجين والخريجات قد بلغ ٩٣٨٢ عام ١٤٠٣/١٤٠٤هـ^(١)

وهؤلاء الخريجون والخريجات أسهموا - بطبيعة الحال - في تطور وتنمية المجتمع السعودي ، في كل مجال من مجالات التنمية ، ابتداءً من التدريس إلى الطب ، ومن الهندسة إلى الزراعة ، ومن العلوم إلى الصيدلة ، ومن الشريعة وأصول الدين إلى اللغة العربية والعلوم الاجتماعية المتنوعة .

وهذا يؤكد على أن «مخرجات التربية» شرط أساسي ولازم للتغير وللتحرك نحو الأمام في كل مجال ، أخذاً في الحسبان ما يقدمه أصحاب هذه الكفاءات من خدمات لوطنهم . . كل في مجاله ، وما يقومون به من جهود تخدم الاقتصاد الوطني ، وتساعد على تنميته وتطويره . ولاننس في هذا المجال عشرات الآلاف من خريجي المدارس الثانوية بأنواعها المختلفة ، وخريجي الثانويات المعادلة .

وما يقال عن المملكة العربية السعودية ، يقال عن شقيقاتها الخليجيات ، بدرجات متفاوتة ، ويكفي أن بها الآن ثمان عشرة جامعة ، تمدها بالكثير من العناصر البشرية المطلوبة للتنمية ، بالإضافة إلى الكثير من معاهد ومراكز التدريب المتنوعة ، وكل ذلك مما يساعد على إحداث التطور والتغير . . والتقدم .

أما أن التربية أثر من آثار التغير الاجتماعي Effect ، ونتيجة من نتائجه فهذا معناه أن المجتمع المتغير ، سريع التغير ، يمد التربية بمؤسساتها المختلفة ، بكل ما

(١) خطة التنمية الثالثة ١٤٠٠-١٤٠٥هـ / ١٩٨٠-١٩٨٥م ، وزارة التخطيط - المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ص ٢٤٨ .

تحتاج اليه من عناصر بشرية ، ومصادر مادية لازمة كي تؤدي وظائفها على الوجه الأكمل . وبقدر ما يكون اهتمام المجتمع بهذا الجانب . . بقدر ما يكون الناتج أو العائد من المؤسسات التربوية .

لقد اهتم المجتمع الأمريكي اهتماماً عظيماً بالإنتاج الزراعي ، ورأي مفكره وصانعو القرار فيه أن الاهتمام بالتعليم الزراعي ، على كافة المستويات ، سوف يعود على المجتمع كله بالخير ، ومن هنا فلقد صدر قانون موريل Morril Act عام ١٨٦٢م الذي وهب ٣٠,٠٠٠ فداناً من الأراضي الحكومية تباع لصالح إنشاء وإدارة كلية للزراعة على الأقل ، في كل ولاية ، يكون من أهدافها الأساسية الاهتمام بالزراعة والميكانيكا المتعلقة بها^(١)

ولقد اعتبر هذا القانون ، الذي صدر في الولايات المتحدة الأمريكية ، منذ أكثر من مائة عام ، اعتبر من أهم وأخطر القوانين التي دفعت بالتعليم إلى الأمام ، وخاصة التعليم الزراعي ، الذي جعل الولايات المتحدة أكثر بلاد العالم إنتاجاً في هذا المجال ، والذي كان من نتيجته جعل يد هذه الدولة هي اليد العليا في تعاملها السياسي والاقتصادي مع كثير من بلاد العالم ، خاصة تلك التي لا يكتفي إنتاجها الزراعي ولا يفي بحاجة مواطنيها .

وهذا المثل يبين لنا أن المجتمع في تطوره وتغيره واهتمامه بمؤسساته التربوية ، يدفع بتلك المؤسسات إلى الأمام ، وتعود هي فتسهم في دفع المجتمع إلى الأمام بفضل ما توفره من كفاءات بشرية ممتازة ، تتحمل أعباء التنمية في مجتمعاتها ، وبفضل إسهاماتها في ميادين تخصصها . . . وكل ذلك يدور في حلقة لا تنتهي من

(١) محمد عبد العليم مرسي : ترشيد جهود أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الخليجية في مجال البحث العلمي ، الندوة الفكرية الثانية لرؤساء ومديري الجامعات الخليجية ، جدة ، رجب ١٤٠٥هـ / إبريل ١٩٨٥م ، رسالة الخليج العربي ، العدد ١٦ ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م ، ص ٨٣-٨٤ .

التغير . . ومواجهة التغير ، ومن التقدم ومزيد من التقدم .

ويمكننا بطبيعة الحال أن نعمم هذا المثل على دول الخليج العربي ، فلقد أدركت أهمية التعليم بجميع مستوياته ، فرصدت له الميزانيات الضخمة ، واستقدمت له الكفاءات العالية من كل مكان ، وشيدت له الأبنية الكثيرة والعصرية ، وزودتها بالمعامل والمختبرات ، وكل ذلك في فترة تغيرها السريع ، التي أعقبت اكتشاف البترول واستخراجه ، وخاصة عندما ارتفعت أسعاره عقب حرب رمضان / أكتوبر المجيدة ، وكانت النتيجة أن بدأ التعليم يمد المجتمع الخليجي بمخرجات على شكل كفاءات بشرية ماهرة مدربة وعالية المستوى ، وإذن فهو أثر Effect واضح من آثار التغير الحادث في المنطقة .